سلطانة يوسف : ام كلثوم طلبت مني الغناء في مصر

اسمها الحقيقي سلطانة يوسف ولدت في محلة الطلطران المحلة نفسها التي رأيناها في فيلم بيوت في ذك الزقاق وكانت عائلتها تعمل المهنة نفسها التي استعرضها الفيلم أي مهنة العمل الرأسمالي في البيوت فقد كان والداها يعملان في صنع الحلوى وقد استطعنا ان نضع تاريخا تقريبيا لسنة ميلادها فكانت سنة ١٩١٣ وفي البيت الفقير جدا عاشت سلطانة طفولتها وشبابها المبكر حتى سن الثالثة عشرة حيث كانت تساعد والديها في العمل بداية الطريق وكانت تستمع اليهما وهما يغنيان خلال انهماكهما في العمل وكانت تغني وتردد معهما كلمات الاغاني ثم اخذ صوتها يرتفع فيرتفع رويدا رويدا ليلفت انظار سكان المنزل المتداعي ولان هذه العوائل كان محكوماً عليها بالفقر وكان محكوماً عليها بالجوع وكان محكوماً عليها بالضياع فقد استولى الفقر على السلطانة وحاصرها الجوع فضلت طريقها وضاعت. وكانت سلطانة يوسف نتاجاً حقيقياً وطبيعياً لتلك الفترة لقد ضلت الفتاة الحلوة ذات الصوت الجميل والتي لاتعرف القراءة والكتابة دربها وتلقفتها الحياة بقسوتها وجبروتها حتى وجدت من يستمع الى صوتها صدفة كان صوتا جميلاً وقويا لكنه صوت بدائي لذلك عهد بها الى عازف قانون كان مشهورا في تلك الايام يدعى ابراهيم وهذا بدوره اخذ بتلقينها اصول الغناء وتعريفها بانواع المقامات وتدريب صوتها وخلال ستة اشهر من التمرين والدراسة الجادتين كانت سلطانة يوسف قد اصبحت مطربة قديرة تتحكم بصوتها وتجيد معظم انواع المقامات وبدات تشهر سلاحها الجديد الذي هو صوتها وهكذا ذاع صيتها فبدأ الملحنون يعدون لها الاغاني التي مالبثت حتى انتشرت واشتهرت وحوالي عام ١٩٤١قررت الانتقال الى مدينة الموصل والاقامة فيها وكانت قد زارتها زيارات فنية متباعدة من قبل واعجبت بجمالها وهدوئها وفي الموصل عملت للغناء حتى مطلع الستينيات حيث وجدت ان الاوان قد ان للاعتزال هذا الحوار اجري معها عام ١٩٧٨ قبل وفاتها بشهرين وهي تعيش على مدخراتها التي اخذت تذوب وتضمحل رويدا مثل شبابها ومجدها

في اخر ايام حياتها

•اليس غريبا انك مازلت امية؟.

– في طفولتي منعني الفقر والجهل من الذهاب الى المدرسة وعندما اصبحت امتلك المال كنت قد نسيت تماما حكاية تعلم القراءة والكتابة

•اذن كيف كنت تحفظين اغانيك ..؟

– لقد كنت احفظها بعد ان يرددها المؤلف امامي .. عدة مرات وخلال التدريب على اللحن قد اكون حفظت كلمات الاغنية تماما

. •من كان يكتب لك الاغنيات؟.

– تعني من هم اشهر من تعاملت معهم .؟

– مؤلفي المفضل كان عبد الكريم العلاف اما الملحن الذي افضله (صالح) ولحن لي صالح العديد من الاغنيات التي نالت الشهرة مثل (وين المروة و ياطيور الروض غني و اه ياقلبي الحزين)..

•ولكنهم يقدمون وين المروة في التلفزيون على انها مجهولة الملحن .. وبالمناسبة فان انوار عبد الوهاب تغنيها فما رايك ؟.

– لقد رايتها عدة مرات وسمعتها في التلفزيون ان انوار مطربة جيدة ولكنهم يحدثون بعض التغيرات في الالحان القديمة انا شخصيا افضل ان تبقى الاغاني القديمة ..

•اذن ما رايك بالاصوات الغنائية التي تسمعينها ..؟

– حسين نعمة مطرب جيد وكذلك ياس خضر وفاضل عواد ومحمد حسين مرعي ومائدة نزهت ولكن سيتا لاتعجبني لانها تغني بطريقة غريبة على الغناء العربي اما الذين سبقوهم ففيهم ناظم الغزالي وايضا رضا علي ملحن ومغن جيد. ..

الماضي الحاضر

واخمن السبب في عدم رغبتها في سماع اغانيها ان هذه المراة التي كانت جميلة وغنية وكان صوتها حلوا غدت امراة كبيرة في السن يقرب من الشيخوخة والعجز لذا فهي تمقت كل ما يذكرها بماضيها الرائع وعندما جاهرت بالراي هذا قالت:

– نعم انها تذكرني بالماضي والمجد والشباب بل انها تشدني الى تلك الايام المضيئة لقد كنا نتمتع بالشهرة والجمال والحظ السعيد وقد امتلكنا كل شيء فهل يعود الشباب يوما .. انا قانعة بهذه الحياة .. فالقناعة كنز لايفنى ولااريد ان اتشبث بالماضي حتى ولو من خلال اغنياتي ولكن اقول لك بصدق اني نادمة لاني عملت في مجال الفن لقد خرجت منه تماما كما دخلت في عالمه معدومة ووحيدة.

•لقد كنت مطربة شهيرة.. الذي نريده منك ان تقيمي صوتك.. ان تحدثينا عن صوتك .؟

– كما قلت لكم انني المطربة الوحيدة التي كانت تغني المقامات كانت زكية جورج تمتلك صوتا رائعا وصديقة الملاية مطربة رائعة وصوتها جميل وسليمة مراد تغني بستات جميلة وشعبية لكنني كنت الوحيدة التي تغني المقامات وتجيد اصولها وقد كان صوتي مشهورا بقوته وكنت استطيع الغناء بدون مايكرفون ببساطة حدث ان رقابة الملاهي اصدرت قرارا بمنع المايكرفونات في الملاهي الصيفية وكنت اغني في احد الملاهي الموصلية في حينه وحينما جاءو للتفتيش عن المايكرفون في الملهى اصرت صاحبة الملهى على انها لاتمتلك المايكرفون لكنهم اصروا على وجوده وكان دليلهم صوتي الذي كان يلعلع في الخارج وعندما وقفت على المسرح وشاهدوني وانا اغني بدون مايكرفون ادركوا الخطا الذي وقعوا فيه .

انا وسليمة مراد..

قلت للسلطانة التي كانت تتحدث بتلقائية حينا وبحرج واضح احيانا اخر:

•ها انت تنعتيتهم جميعا بالجودة فاين الحقيقة في ارائك هذه ؟.

– اقول لكم ..لقد عشت طوال حياتي لا احارب احدا او اسيء الى أي مخلوق فما بالك اذا كان هذا المخلوق فنانا من صنفي لقد كنت مسالمة واحب الوحدة لذلك كان اصدقائي قليلين جدا لكنني لم اكن ابخل بمساعدة من يقصدني بحاجة ولعل هذا سبب ما انا فيه من فقر الان . انا احب العزلة منذ طفولتي والان لا أهتم اذا بقيت في البيت شهرين او اكثر..

•الان هل ترشدينا الى تسجيلاتك في الاذاعة وعلى الاسطوانات فانا منذ ايام احاول ان استمع الى اغنية لك دون جدوى .؟

– انا ايضا لاامتلك أي شريط او اية اسطوانة فقد تبددت اغنياتي وضاعت مني لكنها كانت كلها اغاني حلوة ومشهورة وكنت المطربة الوحيدة التي تغني المقام لذلك انا اعتبر الاستاذ محمد القبانجي ابا روحيا واستاذا رائدا لي وقد سجلت اول مرة على اسطوانات في شركة بيضان فون اذ اخذني الى حلب وتلك كانت سفرتي الوحيدة خارج القطر . فسجلت هناك ١٤ اسطوانة ودفعوا لي ٤٠٠ دينار خلاف اجور السفر والاقامة واجور الفرقة الموسيقية اما بالنسبة للاذاعة فاني لم اسجل لها اية اغانٍ ولكنني قدمت من خلالها حفلات غنائية كانت تذاع على الهواء مباشرة وتستغرق نصف ساعة او ساعة او اكثر لقد كانت الاذاعة عندما غنيت فيها تتكون من ثلاث غرف ومجموعة من الخيم يسكنها الجنود الذين يحرسون الاذاعة وكان هذا اواخر الثلاثينيات .

•وهل بقي صوتك ملعلعا قويا في ايامك الاخيرة في الفن ؟.

– في مطلع الستينيات قبيل اعتزالي كنت اشارك في حفلة على احد المسارح وكان المغني عبد الصاحب شراد على احد المسارح يغني وعندما تعطلت المايكرفونات أخذ يغني بكل صوته لكن الناس ضجوا بالصياح بسبب عدم سماعهم صوته وحين وقفت على المسرح كان صوتي يملأ ارجاء المسرح وكان الجميع يستمعون ا

•وهل التقيت بام كلثوم.. اعني هل استمعت الى صوتك ؟.

– طبعا لقد قدمت السيدة ام كلثوم الى العراق ولا اعرف أي سنة بالضبط وعملت في ملهى الهلال الذي يمتلكه جبار السبع وكان يصحبها الموسيقار محمد القصبجي وكانت تقدم ثلاث حفلات بالاسبوع وكان صاحب الملهى قد استاجر لها بيتا في الاعظمية في راس الحواش وهناك التقيتها فقد زرتها ومجموعة من الفنانات وقد طلبت مني ان اغني قليلا وغنيت فقالت لي (انتي مطربة جيدة وصوتك قوي ووسيم كان يجب ان تكوني في مصر لي ايضا وهناك شهادة اخرى اعتز بها من المطربة الكبيرة ام كلثوم ..

لتنالي ما تستحقينه ..) وفي تلك الفترة لم اكن افكر في ان اترك البلد والاغتراب عنه حتى ولو كان هذا السبيل الوحيد للمجد.

حكاية الصراع الخفي بينها وبين سليمة مراد

عندما داهمت الشرطة المسرح بسبب صوتها

جسر الحديد

شهد تتويج الملك فيصل واطل على فيضانات دجلة

في نهاية عام ١٩٤٦ باشرت شركة هولو البريطانية بانشاء جسر الصرافية الحديدي الذي يربط ما بين العطيفية بالقرب من جامع براثا في الكرخ؛ والوزيرية في الرصافة؛ وحينما كان والدي يأخذ الاسرة معه الى (الجرداغ) الذي ابتناه على ساحل دجلة في الكرخ (بالقرب من مقهى البيروتي حاليا) لقضاء عطلة نهاية الاسبوع كنت اشاهد كيف ان المهندسين والعمال يواصلون الليل والنهار من اجل انجازه في اقرب وقت ممكن؛ ولكن وثبة الشعب الكبرى ضد معاهدة بورتسموث والمواجهات الدامية ما بين المتظاهرين وقوات الامن والتي ذهب ضحيتها عدد من خيرة شباب النضال البطولي؛ عرقلت خطط التشييد لفترة طويلة؛ حتى عاودت الهيئات العاملة فيه استكماله وجرى افتتاحه على عهد حكومة جميل المدفعي في نهاية عام ١٩٥٢؛ حيث شاهد الجمهور ولاول مرة القطار العراقي الذي كان يزين جانبيه شعار (س ح ح ع) ـ سكك حديد الحكومة العراقية ـ ويرفع على هامته علم البلاد؛ وهو يطوي فضاءات الجسر السبعة؛ مارا من على شرفته العالية عابرا نهر دجلة بمسافة ٤٥ مترا من ضفته الشرقية حتى ضفته الغربية. لقد غطت الصحافة هذا الحدث المهم بتفاصيل وصور دقيقة؛ لا يكاد القارئ يطلع عليها الا ويتصور نفسه أحد مشاهدي ذلك الافتتاح التأريخي.

حينما كان الجسر في طور الانشاء عام ١٩٥٠ دخلت ومجموعة من الاصدقاء المقربين كلية الحقوق التي كانت تتوسط الزقاق الذي يربط شارع الاعظمية بشارع الوزيرية؛ مواجهة بذلك مقتربات الجسر. لم يكن هذا القائم على قواعد صلبة؛مجرد معبر قطار او سيارات او مارة وحسب؛ بل كان شرفة منفتحة على فضاء بعيد تجري من تحته مياه دجلة الخير؛ ومما زاده بهاءا ومتعة اتكاؤه على ارض عريضة تربط ما بين الشارعين؛ حولتها امانة العاصمة الى حديقة يانعة سندسية تنام على حواشيها الوان من زهور المواسم المتعانقة مع الاوراد الطبيعية البرية التي كانت تستلقي على اكتاف غرين السواقي؛ تحيطها برعايتها شجيرات الدفلى الزاهية بالوانها الجذابة.في الفترة (١٩٥٠ ـ ١٩٥٤) والتي جاورنا فيها هذا الجسر حينما كنا طلابا في كلية الحقوق كان يطلق عليه بعض الطلاب (الجد الحنون)؛ مرت احداث سجلت صفحاتها كتب التاريخ المعاصر بكثير من التفاصيل؛ ومن نماذجها انعكاسات ثورة ٢٣ يوليو في مصر على ارهاصات قوى المعارضة المتمثلة ب (الاحزاب والنقابات والجمعيات المهنية؛ وتجمعات الطلاب؛ وتحشدات الطبقة المثقفة الوطنية)؛ فعلى سبيل المثال؛ كان لشرارة ازمة طلبة كلية الصيدلة ضد القانون التعسفي الذي اصدرته وزارة الصحة والذي اختصر عنوانه ب (قانون اعادة الامتحانات) الاثر المدوي في تفجير الاوضاع المتأزمة اصلا؛ ففي ٢٦ تشرين الاول ١٩٥٢أضرب طلاب تلك الكلية؛ فوقع ليهم اعتداء مسلح من قبل سلطات الحكومة؛ وازاء ذلك هاجت جماهير الطلاب وتبعتها جموع مختلفة من ابناء الشعب؛ ما ادى الى تفاقم الوضع فاصطدمت تلك الجماهير الهائجة بالشرطة في ملحمة بطولية؛ سقط من جرائها العشرات مضرجين بدمائهم؛ وتقول صحافة تلك الايام وهي تصور الانتفاضة ان كلية الحقوق كان لها الحظ الاوفر من الاقتحام والتصدي والتضحيات. لقد كانت حكومة رئيس اركان الجيش (نور الدين محمود) القمعية والتي استعملت ا لقسوة المتناهية في معالجة الامور...؛عاجزة تماما عن ايقاف ذلك المد الجماهيري المتصاعد؛ بخاصة ان تلك الجماهير الغاضبة التحمت مع كل ما حشدت ضدها السلطة من قوى الامن فهزمها المنتفضون شر هزيمة؛ وكان ذلك التصدي البطولي ايذانا بفشل الحكومة الساحق في معالجة الاوضاع عن طريق استعمال القوة؛ ما اضطرها الى تقديم الاستقالة الفورية لكي تحل مكانها حكومة جميل المدفعي؛ التي عملت جاهدة على تهدئة الاوضاع والغاء جميع الاجرآءات الاستثنائية التي اتخذت سابقا والتي كانت السبب المحرك لتلك الانتفاضة الشعبية العارمة.اما النموذج الثاني الذي شهده جارنا الجسر في تلك الحقبة؛ فهو الاحتفالات والمهرجانات في مختلف المناسبات؛ ومن ابرزها ما غصت به الشوارع المحيطة لمناسبة العيد الاول لجلوس الملك فيصل الثاني على عرش العراق؛ ففي ٢ مايس من عام ١٩٥٣ بلغ الملك الشامنة عشرة من العمر؛ فعقد اجتماع مشترك لمجلسي الاعيان والنواب؛ ونودي به ملكا فأدى القسم الدستوري؛ثم خرج من قاعة البرلمان لينطلق من باب المعظم نحو البلاط لقد اخترنا حدائق جسر الصرافية المطلة على شارع الاعظمية الرئيس مكانا نرقب منه ذلك الاحتفال التأريخي؛ تظللنا منصة كبيرة كانت معدة للتصوير السينمائي والنقل الاذاعي؛وما هي سويعات حتى اقتربت منا العربة الملكية التي تجرها الخيول العربية وقد جلس فيها الملك بملابسه العسكرية البيضاء والى جواره ولي العهد الامير عبد الاله؛ وهي تتجه نحو البلاط الملكي المتواضع (كان يقابل معهد الفنون الجميلة في الكسرة)؛ وهو لا يبعد عن الجسر الحديدي الا بضعة امتار. وفي مساء اليوم ذاته تلألأت الاضاءة الملونة على جانبي الجسر؛ بينما كانت السماعات تنقل الاغاني والاناشيد المفرحة في تلك المناسبة الفريدة.وتدور احداث نموذجنا الثالث في ربيع عام ١٩٥٤؛ حيث ازبد دجلة وارعد وفاض بشكل لم يسبق له مثيل في العصر الحديث وتقدم بسيوله الجارفة حتى غمر مشارف الجهة الشرقية من بغداد؛ وواصل زحفه الى ما خلف السدة؛ فاضطر مجلس الوزراء لاتخاذ قرار عاجل؛ باخلاء الرصافة وضواحيها ونقل السكان الى الكرخ وما جاورها على الفور؛ ولكن وزير الداخلية يومذاك سعيد قزاز؛ اخذ كامل المسؤولية على عاتقه ومنع اي اجراء سلبي بهذا الشأن؛ وطالب وزارة المعارف بحشد طلاب الثانويات والكليات والمعاهد؛ ونقلهم بالتعاون مع الجهات المختصة الى المناطق التي يحتمل غرقها؛ وذلك لمساعدة الجيش في سد الثغرات ورفع مستوى السداد بواسطة اكياس التراب الى اعلى. لقد كان للقطار الدور الاول في نقل المتطوعين مع اطنان من اكياس التراب عبر جسر الصرافية الى أقرب المناطق التي يصلها؛ لتتولى بعدها الباصات وسيارات النقل العسكرية من مواصلة النقل حتى المواقع القريبة من ارتفاع مناسيب المياه. كان عملنا شاقا لم يسبق لنا ان مارسنا مثله طيلة مدة الدراسة الا ان شعورنا بتحمل بعض المسؤولية ومشاهدتنا لكثير من الزميلات وهن يحملن الاكياس و يقمن بتسليمها الينا لوضعها على السداد قد شحذ فينا النخوة والهمة وخفف عنا كل ذلك الارهاق. حينما اتممنا مهماتنا وعدنا الى بيوتنا ثم الى مقاعد الدراسة؛ لاحظنا بأن صديقنا القطار ظل مواصلا رحلاته الجهادية من على ذلك الجسر العتيد لايام وأيام؛ حتى زال الخطر تماما عن بغداد.في الصرافية وما حولها؛ مواقع وبيوتات بارزة؛ تبدأ من محطة شرقي بغداد؛ حيث الحصن التربوي الاول (دار المعلمين العالية)؛ ثم كلية الهندسة؛ فالثكنة العسكرية؛ وموقع موسيقى الجيش؛ ثم مطبعة الرابطة الشهيرة بادارة الشخصية التقدمية المعروفة عبد الفتاح ابراهيم (هي دار الجمهورية ودار الحرية للطباعة فيما بعد)؛ فكلية الحقوق؛ حيث تتناثر حولها بعض البيوتات المعروفة لآل المميز؛ وآل عريم؛ وآل الجوربجي والحاج محمود رامز؛ والشاعر نعمان الكنعاني؛ والحاج طه المعمار؛ والدكتور اسماعيل ناجي...الخ وكان لزميلنا عبد الرزاق المسعودي؛ بيت صغير انيق يجاور الجسر؛ نلتقي فيه احيانا لنقضي سهرة الخميس من اول كل شهر ونحن نستمع الى تغريدات(مطربة الشرق ام كلثوم) المنقولة على الهواء مباشرة من مسرح الازبكية؛ ونستنشق في ذات الوقت عبير دجلة الذي ينقل لنا في ليالي الصيف الوانا من المقامات والبستات وهي تنطلق من حناجر بغدادية لا يطيب لاصحابها السهر االا بين احضان نهرهم الخالد. ومع ان الجسر الذي يمر عليه القطار لايبعد سوى خطوات عن ذلك البيت الكريم؛ الا ان سحر الغناء وتجاوبنا مع كل نغمة في القرار والجواب؛ كان يغطي تماما على اصوات اعجلات القطار وهي تطوي سكة الحديد الى محطة غربي بغداد.